الوحدة 2: الأغاني والإيقاعات الشعبية

في الاحتفالات العائلية، وخلال طقوس المرور التي ترافق دورة الحياة، وكذلك المواسم الجهوية، لا شيء يعلو فوق الموسيقى الشعبية بمظاهرها المختلفة وتعبيراتها المتعددة بتعدد المناطق وتنوع اللهجات، وهذا الثراء ظاهر على وجه المثال لا الحصر في فنون العيطة وإزلان الأطلس ولغنوج الريفي وأزوان الحساني، وكذلك الأمر بالنسبة لمرددات عبيدات الرما. ويعد المغرب بذلك من أغنى البلدان العربية والإفريقية برصيده الغنائي والإيقاعي.

1 .العيطة
للعيطة مواطن كثيرة في المغرب يجملها الدكتور حسن نجمي في تسعة أنماط في مناطق الشاوية وعبدة ودكالة وما يجاورها من حوزي وحمر ووردیغة وزعير وكذلك العيطة الجبلية والعيطة الفيلالية. مواضيع العيطة تلامس مجموعة كبيرة من الأغراض وهي التصوف الشعبي المعروف بالسواكن، وفي الجهة مواضيع الحب والغرام، لكننا نجد العيطة التي تحث المقاتلين على الجهاد ضد الغزاة.
ومعنى كلمة عيطة يحيل على مفهوم النداء، إن كان نداء لوعة أو نداء استغاثة وتبرك بأحد الأولياء الصالحين، والمعلوم كذلك في الزمن السابق أن بركة الولي هي التي تمنح للموسيقي الشعبي موهبته الفنية.
ما الذي ينجذب إليه عشاق العيطة؟ هل هي براعة نظم الأبيات وترتيب القوافي، أم صوت الشيخة الصادح، أم إيقاعاتها التي تستدعي الأجساد الراقصة. كل ذلك يُكون بالطبع خلطة سحرية يغديها حضور الأمثال والحكم الشعبية. فالشعر شعر بدوي، والموسيقى تمتح من السهول كما تنهل من الأطلس والجبل وما حولهما من نجود وهضاب
لدينا عدة أنماط من العيطات بتعدد المناطق التي تأويها، لكننا نجد على العموم ثلاثة طرق أساسية في بناء العيطة، إما أن تعتمد على تتالي الأبيات ذات الوزن الواحد ونسميها حبات، وإما أن نجد عيطات ذات هيكل مقطعي له مقدمات وخاتمة. وإذا أضفنا العيطة الجبلية التي نسميها خطأ بالطقطوقة الجبلية سنجد أن من بين أبنيتها المعروفة هو مقدمة الرايلة الموسيقية وثلاثة مراحل إيقاعية.
ونجد أن عيطة عبدة وتسمى بالحصبة تمتاز بدرجة عالية من الحبكة وفيها أطول قطعة وهي عيطة الرادوني التي تتكون من تسعة فصول.

2 .إزلان
من بين ما كان يعتمده الموسيقي الأمازيغي في الأطلس المتوسط هناك تقليدان أساسيان: إزلان وتاميديازت. النوع الأول له جذور شعرية راسخة في مجتمع القبيلة، إذ يشكل إحدى الدعامات الكبرى المصاحبة لرقصة أحيدوس الجماعية، بينما تمثل تمديازت الجانب شبه الاحترافي للموسيقي الشاعر المتجول.
إزلان ومفردها إزلي ومعناها الأصلي في الأمازيغية شيء سائل ومتدفق، أما في الاصطلاح الفني فهو شعر قصير له إيقاع ثابت وجملة نغمية بسيطة. والمقطع الشعري هنا يتكون من بيتين. وقد شكلت إزلان أساسا لمجموعة من أنماط الغناء المفرد والجماعي من تاماوايت الموال الأطلسي ومرددات أحيدوس إلى أن أصبح المفهوم منسحبا على الأغنية الأطلسية الجديدة التي اشتهرت مع حمو اليزيد ورويشة وحادة أوعكي وغيرهم.

3. إزران ولغنوج
في مناطق الريف يتحول اللام في الغالب إلى راء فنقول إزران عوض إزلان تعبيرا عن الأغنية الريفية قديمها وحديثها كما يتم استعمال لفظ آخر هو "لغنوج". ومن المظاهر الموسيقية شبه احترافية، نجد كذلك ظاهرة إمديازن التي تختلف عن مثيلتها في الأطلسين المتوسط والكبير، وامديازن الريف هم فنانون يتوارثون المهنة أبا عن جد ويتقنون نظم الشعر الشعبي والعزف على آلات مثل الزمار (المزمار المزدوج)، وتامجا (الناي) وأدجون (البندير). وقد أصبحت كلمة إزران تدل على كافة مظاهر الأغنية الجديدة عند الفنانين والفنانات من الريف، هذه الأغنية التي استعملت في البداية عروضا شعرا معروف ب"رالا بويا" قد أن تتنوع الأعاريض بعد ذلك.
من بين الفنانين الذين اشتهروا منذ ستينيات القرن الماضي نجد "ميمونت ن سروان"، أما حاليا فللأغنية الريفية جيل كبير من الفنانات والفنانين أغلبهم في المهجر نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الفنانة ميلودة والفنان خالد إزري.

4 .أزوان
أزوان هو الجانب الموسيقي في منظومة الحفلة عند القبائل الحسانية الصحراوية، وهذه المنظومة يسمونها "الهول" كناية عن الشيء الخطير والهائل. يتضمن هذا الحفل مكونات ثلاثة وهي إلقاء الشعر (لغن) والعزف والغناء وهو أزوان، وقد ينضاف إليهما الرقص (الرگيص). كل ذلك يساهم في جو من الترفيه والفائدة وترسيخ القيم الاجتماعية، وتكون للشاعر أهم مكانة في هذا الجمع.

لعزف أزوان يستعمل الصحراويون آلات مختلفة منها تيدينت للرجال وأردين للنساء بالإضافة إلى إيقاع الطبل وفي النادر يستعينون بناي يسمى "نايفرة". وكلها في خدمة حصة موسيقية في سلسلة من الأغاني التي نظمها القدماأ في خمسة مراحل إيقاعية رئيسية
أما منذ الثمانينات فقد استعاضوا عن الآلات الوترية التقليدية بآلة القيتار الكهربائي وآلة الأرغن.

5 .عبيدات رما
في الدارجة المغربية الرما ومفردها رامي هم الرماة في مجال الصيد وساحات القتال، أما عبيدات الرما فهم الفنانون المرافقون للرماة لتحميسهم وتنظيم حصص الترفيه والتدريب. يرتكز هذا الفن على أبيات شعرية شعبية تنهل من الحكمة الشعبية دون إغفال تلميحات من الفكاهة التي ترافقها تشكيلات إيقاعية قوية ورقصات فردية أو ثنائية تحيل على مجمل إشارات النشاط الفلاحي (زرع وحصد ونسيج) وإشارة الرماة والصيادين.
تتكون الفرق الحالية لعبيدات الرماة من سبعة رجال في المعدل يمسكون واقفين بآلة التعريجة ويتصدرهم رئيسهم بآلة المقص تعبيرا عن حركة جز الصوف. ويكون غناؤهم في تناوب بين الرئيس والمجموعة.